صِفَةُ الإِيثَارِ

كما يصورها القرآن الكريم

- تعريف الإيثار .
- وروده فى القرآن الكريم .
- أنواع الإيثار .

أ ــ إيثار الحياة الدنيا على الآخرة .

ب ــ إيثار الحق على الباطل .

ج ــ إيثار الغير على النفس .

- نتائج الإيثار .

بقلم

أ.د. عبد الحى الفرماوى

تعريف الإيثار

الإيثار : هو التفضيل[١] .

وفى اللسان : آثره عليه .. أى : فضله ،[٢] كما فى قول إخوة يوسف عليه السلام له : «... لقد آثرك الله علينا »[٣] .

والتفضيل : يكون من الله تعالى ، وأيضاً يكون من الناس .

كما يكون التفضيل كذلك : فى الأشياء ، أى : تفضيل شىء على شىء ، وفى المبادىء والأفكار ، وفى الأشخاص ، بمعنى : تفضيل النفس على الغير ، أو العكس .

وهو صفة : تدل على نبل الطبع ، وكرم الخلق وسماحة النفس ، وقوة الإيمان .

• • •

وبحثنا : يركز على هذا وذاك .

ورود فى القرآن الكريم

وقد ورد الإيثار بمعنى التفضيل فى القرآن الكريم فى مواضع خمسة :

١ — فى سورة الأعلى المكية

---

(١) الراغب الأصفهانى (المفردات : كتاب الألف).
(٢) ابن منظور .. لسان العرب : مادة : أثر .
(٣) سورة يوسف : الاية ٩١ .

يقول تعالى : « قد أفلح من تزكى • وذكر اسم ربه فصلى • بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى »(١) .

٢ — فى سورة طه المكية

يقول تعالى : « ... قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى »(٢) .

٣ — فى سورة يوسف المكية

يقول تعالى : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »(٣) .

٤ — فى سورة النازعات المكية

يقول تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى • يوم يتذكر الإنسان ماسعى • وبرزت الجحيم لمن يرى • فأما من طغى • وآثر الحياة الدنيا • فإن الجحيم هى المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإن الجنة هى المأوى »(٤) .

٥ — فى سورة الحشر المدنية

يقول تعالى : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٥) .

وفى ظلال هذه الآيات الكريمة يدور بحثنا عن الإيثار على النحو التالى:

---

(١) الآيات : ١٤ — ١٧ (٢) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣
(٣) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ (٤) الآيات : ٣٤ — ٤١
(٥) الآية : ٩

أنواع الإيثار

والإيثار عند البشر : تتنازعه الألوان والدوافع .

كما يكون : دلالة على فساد الطبع وسوء الطوية ، أو علامة على : سماحة النفس . وسلامة التربية ، وحسن الفهم . وعلو الهمة ، ونقاء العقيدة .

الأول . مذموم ، ونتائجه فى الدنيا — على صاحبه — عقيمة ، وفى الاخرة جد وخيمة .

والثانى : محمود ، يثمر الخير لأهله ، ويشيع فيهم وبينهم الرضا والحب والسعادة فى الدنيا ، ويضمن لهم فى الأبدية مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهو — بهذا وذاك — ينقسم — فيما يدل البحث — إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول

إيثار الحياة الدنيا على الآخرة

وهذا : إيثار الكفار، الذين لا يومنون إلا بما يشاهدون، ولا يثقون إلا فيما يلمسون .

ولذلك : لا يرون إلا أنفسهم ، ولا يسعون فى غير مصالحهم ، ولا يعترفون بالغيب ، ولا يستعدون لليوم الاخر ، ويرفضون إتباع الرسل، لأنهم لا يؤمنون بالله أصلا .

ومن هنا : طغوا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، فصاروا فيها « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »(١) .

وقد عاب الله تعالى عليهم ذلك ، وتوعدهم بسببه ، حينما قال سبحانه : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى »(٢) ، كما قال سبحانه فى حقهم أيضاً : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً »(٣) .

كما نبه تعالى عليهم ، محذراً منهم قائلا : « . . فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق »(٤) .

ونددبهم — كذلك — فى قوله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى »(٥) .

. . .

وقد تبعهم وصار على شاكلتهم ، ونهج نهجهم ، فريق آخر ، أفراده لإنكار الإسلام — وإن كانوا ينتسبون إليه — أقرب منهم للإقرار به والإذعان له ، ولمعاداته أقرب منهم للولاء له ، لأنهم أشربوا فى قلوبهم حب الدنيا ، وشغلوا بها ، حتى صارت أكبر همهم ومبلغ علمهم ، ومنتهى آمالهم ، وأصبح إيثارهم لها على الاخرة سلوكاً فيهم ، وعادة لهم ، وسجية غالبة عليهم ، مما دفعهم إلى الحرص عليها ، والتمتع بها ، وعدم الطاعة فيها والإصلاح لها ، والعدل بين أهلها ، فجمعوا من حرام ، وتغذوا بالحرام ،

(١) سورة محمد : الاية ١٢
(٢) سورة النازعات : الايات ٣٧ — ٣٩
(٣) سورة الإسراء : ١٨ (٤) سورة البقرة : الاية ٢٠٠
(٥) سورة الأعلى : الايتان ١٦ ، ١٧

وأنفقوا فى الحرام ، بل زادوا على ذلك : أن صاروا بمن يؤثرون آخرتهم على دنياهم « يضحكون • وإذا مروا بهم يتغامزون • وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين • وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون »(١) .

وبسبب من هؤلاء وهؤلاء : ساءت الطباع ، وفسدت الذمم ، وانتشرت الفاحشة ، وساد البغى ، وعلا صوت الطغيان ، وكثرت الحروب وشاع الخراب ، وجثم : البلاء على الأجساد ، والإهمال على الإنتاج ، والجوع على البطون ، والجهل على العقول ، والخوف على النفوس .

وصدق رسول الله — ﷺ — : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »(٢) ، صغرت أو كبرت .

ظلموا أنفسهم ، وأفسدوا غيرهم ، وما أطاعوا ربهم . . !!

يكاد يصدق فيهم جميعاً قوله تعالى : « وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم »(٣) .

. . .

وإيثار الحياة الدنيا على الاخرة على ذلك : صفة مذمومة ، وعمل سىء وسراب خادع ، وسعى خائب .

(١) سورة المطففين : الايات ٢٩ — ٣٢
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » والبيهقى فى « شعب الإيمان » من طريقه ، من رواية الحسن مرسلا
(٣) سورة إبراهيم : الايات ٢١ — ٢٢

وقد نبه الرسل الكرام على ذلك، وحذروا منه: قال — ﷺ —: «من أحب دنياه: أضر بآخرته، ومن أحب آخرته: أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[1].

ويروى الإمام الغزالى فى الإحياء:[2] أن عيسى عليه السلام، مر بقرية، فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرقات.

فقال: يامعشر الحواريين !! إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا.

فقالوا: يا روح الله .. !! وددنا لو أن علمنا خبرهم.

فسأل الله تعالى:

فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادهم، يجيبوك.

فلما كان الليل: أشرف على مكان عال، ثم نادى: ياأهل القرية.

فأجابه مجيب: لبيك يا روح الله !!

فقال: ماحالكم، وما قصتكم؟

قال: بتنا فى عافية، وأصبحنا فى الهاوية.

قال: وكيف ذاك..؟

قال: بحبنا الدنيا، وطاعتنا أهل المعاصى.

قال: وكيف كان حبكم للدنيا..؟

قال: حب الصبى لأمه !! إذا أقبلت: فرحنا، وإذا أدبرت: حزنا، وبكينا عليها..!!

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث «أبى موسى الأشعرى».

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٢ / ٢٥٥

قال: فما بال أصحابك لم يجيبونى..؟

قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار، بأيدى ملائكة غلاظ شداد.

قال: فكيف أجبتنى أنت من بينهم..؟

قال: لأنى كنت فيهم، ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا معلق على شفير جهنم، لا أدرى أأنجو منها أم أكبكب فيها..؟

فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش، وليس بالمسوح، والنوم على المزابل، كثير مع عافية الدنيا والاخرة !!

كما نبه الصالحون — أيضاً — على ذلك، وحذروا منه:

قال على بن أبى طالب[1]: من جمع فيه ست خصال، لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن النار مهرباً.

من عرف الله: فأطاعه.

وعرف الشيطان: فعصاه.

وعرف الحق: فاتبعه.

وعرف الباطل: فاتقاه.

وعرف الدنيا: فرفضها.

وعرف الاخرة: فطلبها.

وقال الفضيل[2]. لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والاخرة من خزف

---

(١) الإحياء ٢/٢٥٧

(٢) الإحياء ٢/٢٥٩

يبقى ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى .. ؟

وقال مالك بن دينار[1] : بقدر ما تحزن للدنيا ، يخرج هم الاخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك .

ويقول الشاعر الحكيم الداعية :

يا راقد الليل مسروراً بأوله
إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً
أفنى القرون التى كانت منعمة
كرّ الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك
قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا
يامن يعانق دنيا لا بقاء لها
يمسى ويصبح فى دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة
حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها
فينبغى لك أن لا تأمن الدارا

(١) الإحياء ٢/٢٥٩

النوع الثانى

إيثار الحق على الباطل

ويدخل فى هذا النوع : إيثار مبدأ على مبدأ ، ومذهب على مذهب ، وفكرة على فكرة ، وكذلك : تفضيل دين على دين آخر .

ويختلف هذا النوع عن سابقه : لاختصاصه بالمعنويات ، على حين يدور إيثار النوع السابق غالباً فى الماديات .

ولأهمية هذا النوع ، وضرورة التنبه له ، والتركيز عليه : فقد اهتم به الإسلام ، دعوة له ، وحثاً عليه ، وتشجيعاً لأتباعه على جعله : مبدأ من مبادئهم وسجية فى طبائعهم ، دون خوف أو تخاذل .

فنجد القرآن الكريم : يفرده بالذكر ، ويؤثره بالحديث ، ويشيعه : بضرب المثل ، وسرد القصص اللافت له والمحبب فيه .

إذ يقول تعالى فى قصة نوح عليه السلام : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »[1] أى : من آثروا الحق على الباطل ، فآمنوا بنوح ودعوته واتبعوه ، وتركوا أقوامهم وما هم عليه من كفران وجحود ، حتى ولو كانوا فى زخرف من الدنيا وزينتها .

ويقول تعالى كذلك فى قصة هود عليه السلام : « ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ »[2] أى : لما آثروا الحق فآمنوا مع هود عليه السلام على باطل قومهم ، آثرهم الله تعالى برحمته — دون باقى قومهم — من عذاب غليظ .

بل يقولها صراحة من آمنوا مع موسى من سحرة فرعون كما يحكى

(٢) سورة هود : الآية ٤٨ (٢) سورة هود : الآية ٥٨

القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى • قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى • قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا • إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى • إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى • ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى • جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »[1] .

أى : لن نفضل إتباعك يا فرعون على ما جاءنا من الحق ، بل نحن نؤثر الحق الذى جاء به موسى على الباطل الذى تكرهنا عليه ، ولن يفت فى عضدنا ، أو يصرفنا عن هذا الحق الذى آثرناه على ما أنت فيه من باطل تلزمنا به وتكرهنا عليه : ماتهددنا به من صنوف العذاب أو التنكيل .

• • •

وهكذا : أصحاب الهمم العالية ، والنفوس القوية ، والضمائر الحية ، والعقائد السليمة ، والإيمان الراسخ : مهما تزينت لهم الدنيا ، أو زينها لهم أتباع الباطل ، لا يحيدون عن إيثار الحق وتفضيله ، والدفاع عنه ، والإلتزام به ومناصرة أصحابه .

وذلك : لأنهم عرفوا الحق ، وهدوا إلى إتباعه ، ولم تصرفهم عنه دنيا ، ولم تغلبهم من أجله الشهوات .

قال مالك بن دينار[2] : من غلب شهوات الدنيا : فذلك الذى يخاف الشيطان من ظله .

---

(١) سورة طه : الآيات ٧٠ — ٧٦

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٧٧

هـــذا . .

وإن للدين الصحيح ، والمبدأ القويم ، والفكرة الرشيدة ، والحق الواضح . لجاذبية تشد إليها هؤلاء الذين حباهم الله بقوة الروح ، وهداهم إلى طريق الصواب ، فأصبحوا من المؤثرين للحق ، المدافعين عنه ، الذين يعادون الباطل ، ويصمدون فى دحره ، مهما صادفتهم العقبات ، أو أحاطت بهم المتاعب والمشقات ، وما ذلك إلا لأنهم عرفوا الله تعالى ، ووثقوا فى عدله ، وتشوقوا لفضله .

وإن أبرز باطل يصرف عن إيثار الحق عليه : هو الدنيا وزينتها ، إن فى صورة الشوق والحرص على إمتلاكها ، أو الخوف والفزع من ضياعها ، مما يؤدى إلى ضياع المبادىء والقيم أو التهاون فى التمسك بها والحفاظ عليها ، ويساعد هذا على : فساد الأخلاق ، وشيوع الرذائل وضعف الإنتاج ، وسيادة التبعية ، وتغلب الدونية ، بما لا يمكن من نشر فضيلة .

ولذلك : نبه الله تعالى إلى حجم هذا الباطل الذى يصرف الناس عن إيثار الحق عليه ، فقال : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا • وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا »[1] .

كما نبه النبى — ﷺ — على ذلك كذلك . فقال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون »؟ ثم قال : « إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ، ومهدت : تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب »[2] .

---

(١) الكهف : الآيتان ٧ ، ٨

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث أبى سعيد ، والشطر الثانى : رواه ابن أبى الدنيا مع الأول من حديث الحسن مرسلا .

كما نبه الحكماء بدورهم كذلك[1] :

يقول الشاعر :

أرى رجالا بالدين قد قنعوا
وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما
تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ويقول غيره :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه
وجاد بدنياه لما يتوقع

كما أن هناك من صور الباطل الذى يصرف عن إيثار الحق عليه : تفضيل الآباء لبعض الأولاد على بعض ، مما يحملهم يحيدون عن العدل فى معاملتهم ، فيؤثرون هذا على ذاك دون وجه حق ، ويكونون بذلك فى عداد من يؤثرون الباطل على الحق .

وهؤلاء يتوعدهم الله تعالى بعقابه ، الذى يُفهَم من وعد الله تعالى لمن يعدل بين الأولاد فى حديث رسول الله — ﷺ — : « من ولدت له إبنة ، فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده — أى : الذكر — عليها ، أدخله الله بها الجنة »[2] .

ويمكن أن يقاس على هذه الصورة المرفوضة من صور الإيثار :

(١) انظر : الإحياء ٢/٢٥٧ وما بعدها .
(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن عباس .

ما يفعله كثير من الناس ، حينما يؤثرون معارفهم ، أو أقاربهم بما يستحقه غيرهم من المصالح والوظائف .. إلخ .

إذ إن هذا فوق ما فيه من إيثار مرفوض : فهو خيانة للأمانة ، وإساءة للعباد ، وإفساد للمصالح والبلاد . وظلم يعاقب الله مرتكبه .

النوع الثالث

إيثار الغير على النفس

وهذا النوع من الإيثار : هو الذى يعرفه الناس ، ويدور بينهم ، ويلتفتون إليه ، ويكثر كذلك حديثهم عنه .

وإذا كان النوع الأول من أنواع الإيثار ، يدور غالبا فى إطار الأمور المادية ، كما يدور النوع الثانى - كذلك - حول الأمور المعنوية من مبادىء وأفكار وقيم : فإن هذا النوع يجمع بين المجالين ، ويدور فى الإطارين معا

ولأهمية هذا النوع كذلك ، وضرورة التنبه له ، والتركيز عليه ، والدعوة إليه : اهتم به الإسلام من بداية أمره ، وألقى القرآن الكريم الأضواء الكاشفة عليه ، وتعهده النبى — ﷺ — توضيحا وتنفيذا وتطبيقا فى المجتمع الإسلامى .

فهؤلاء هم المسلمون الأنصار بالمدينة : يفتحون بيوتهم ، ويفسحون صدورهم ويقتسمون أموالهم ، و . . و . . ويفعلون ما لم يسمع به التاريخ فى حقبه السابقة عليهم ، من : صنوف الإيثار ، وروائع ألوانه ، مع إخوانهم الذين هاجروا إليهم مع رسول الله — ﷺ — ، وذلك : رضا ، وطيب خاطر ، وسماحة نفس ، بل عن سعادة بما يفعلون ، ة صادقة فى أن يكونوا — عند الله — من المفلحين .

وقد سجل القرآن الكريم لهم هذا الموقف فى كلام خالد يتلى ويتعبد به إلى يوم الدين ، إذ يقول تعالى: « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[1] أى: يفضلون من هاجر إليهم على أنفسهم فى الأموال والبيوت وباقى مايحتاجه المرء من ضرورات الحياة، وكذلك يفضلونهم على أنفسهم فى المحبة والتكريم وباقى مايشعر المرء بالرضا والراحة النفسية ، ويزيح عنه متاعب الغربة وآلام الفراق ، وغير ذلك[2].

كما يقدم القرآن الكريم هذا المثل الواضح الجلى : لإيثار الغير على النفس برضى وعن طيب خاطر ، لتغلغل الإيمان فى نفوس هؤلاء المؤثرين لغيرهم على أنفسهم ، إذ يقول تعالى :

(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا • عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا • يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا • ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا • إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا)[3].

وإذا كان ذلك فى الطعام..!!

---

(١) سورة الحشر : الآيتان ٨ ، ٩

(٢) للتوسع فى هذا الموضوع : انظر كتب الحديث والسيرة .

(٣) سورة الإنسان : الآيات ٥ — ١٠

فهو فى المال على كثرة أنواعه بصفة عامة كذلك: حظى منهم بإيثارهم للغير على أنفسهم فيه ، ومدحهم القرآن الكريم على ذلك .

يقول سبحانه : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ..)[1] الآية .

فقد جعل الله تعالى الإيثار بالمال - على حبه - ذوى القربى واليتامى وغيرهم على النفس من أركان الدين وأصول الإيمان : إعلاء لشأنه ، ورفعا لقدره ، وحثا عليه .

وقد عرف الصالحون هذا الباب من الفضل: فسارعوا اليه ، وجعلوه واقعا ملموسا ، وصورة حية مشرقة لتعاليم الإسلام والتزام المسلمين بها وإيثارهم لها .

ومن هذا المقام :

(أ) تصدق الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - بجميع ماله ، فقال له رسول الله - ﷺ - «ما أبقيت لأهلك»؟

فقال - رضى الله عنه - : أبقيت لهم الله ورسوله[2] .

(ب) ماذكرته كتب التاريخ والسير ، من أن حذيفة العدوى قال[3]: انطلقت يوم «اليرموك» اطلب ابن عم لى - ومعى شىء من الماء - وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٧

(٢) أنظر : تفسير ابن كثير ٣٣٨/٤

(٣) أنظر : القرطبى ٢٨/١٨

فإذا أنا به .

فقلت له : أسقيك .. ؟

فأشار برأسه : أن نعم .

فإذا أنا برجل يقول : «آه .. !! آه .. !!»

فأشار ابن عمى أن انطلق اليه .. فإذا هو : هشام بن العاص .

فقلت : أسقيك .. ؟

فأشار : أن نعم .

فسمع آخر يقول : «آه .. !! ، آه .. !!»

فأشار هشام : أن انطلق اليه .

فجئت هذا - الأخير - فإذا هو قد مات !

فرجعت إلى هشام : فإذا هو قد مات !

فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .. ؟!

(ح) ماذكره القشيرى عن ابن عمر أنه قال[1] :

أهدى لرجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - رأس شاة ، فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعثه إليهم .

فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر : حتى تداولها سبعة بيوت .

(د) ولم تكن صور الإيثار هذه فى الرعية وأفراد الشعوب فقط ، بل كانت فى أروع صورها ، وأحسن تطبيقاتها لدى الحكام وأفراد المسئولين .

فهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على سبيل المثال - الذى : ترك

(١) القرطبى ١٨/ ٢٥

أكل اللحم والسمن ، وأدمن أكل الزيت - عام المجاعة ، حتى تغير لونه[1] إيثارا منه لعامة المسلمين على نفسه وبيته .

ويروى أنه لما قدم الشام : وصنع له طعام لم ير مثله من قبل .

قال : هذا لنا ، فما لفقراء المسلمين الذين لا يشبعون من خبز الشعير ، قيل له : لهم الجنة .

فاغرورقت عينا عمر بالدموع ، وقال : لئن ذهبوا إلى الجنة ، وكان حظنا من هذا الحطام ، فقد خسرنا وفازوا[1] ... !!

• • •

وإذا كانت هذه الصور السابقة قد ألقت لنا بعض الضوء على نماذج من الإيثار بالمال والجهد وما يشابهه : فإن هناك لونا من تفضيل الغير على النفس ، أرفع شأنا وأعلا مقاما من هذه الصور السابقة .

ألا وهو الإيثار بالنفس .

كما فى قول الشاعر :

تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأفضل الإيثار بالنفس : إيثار رسول الله - ﷺ -

ففى الصحيح[2] : أن أبا طلحة ترس[3] على النبى - ﷺ - يوم أحد

(١) أنظر : حياة الصحابة ٢/٢٦٥ بتصرف .

(٢) البخارى : كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب أبى طلحة رضى الله عنه . ومسلم . كتاب الجهاد ، باب غزوة النساء مع الرجال .

(٣) أى : غطى عليه ودافع عنه بترسه وعدته .

وكان النبى - ﷺ - يتطلع ليرى القوم، فيقول له أبو طلحة: لاتشرف[1] يارسول الله فيصيبونك، نحرى دون نحرك «أى: رقبتى فداء لك».

ولم يكن ذلك كلاما فقط.

بل كان إيثارا عمليا حقيقيا بالنفس عن رسول الله - ﷺ - .. !!

إذ تفيد بعض روايات الحديث: أنه وقى بيده رسول الله - ﷺ - وهو يدافع عنه؛ فشلت[2].

قال - وهو يضرب المثل فى أسمى صور الإيثار -: والله ما أحب أن محمدا - ﷺ - الان فى مكانه الذى هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وأنى جالس فى أهلى.

فقال أبو سفيان: مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا.

ثم قتلوه، يرحمه الله[3].

• • •

وإذا كان محمد - ﷺ -: قد انتقل إلى الرفيق الأعلى .. !!

وإذا كانت فضيلة الإيثار: ليست مرتبطة بشخصه - ﷺ - فقط أو بزمانه فقط .. !!

---

(١) أى: لاتنظر اليهم فيرونك.

(٢) البخارى، كتاب المغازى، باب «إذ همت طائفتان منكم .. »إلخ

(٣) سيرة ابن هشام (القسم الثانى - الجزء الثالث ص ١٧٢).

وإذا كانت دعوته باقية خالدة .. !!

وإذا كان الله تعالى يأمرنا قائلا: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] .. !!

فإن صورة الإيثار المثلى اليوم — فيما يرى البحث — هى لدينه ودعوته.

إذ ينبغى: أن تؤثر الدعوة وحمل أمانتها ورفع لوائها، ونشر هديها، على أنفسنا وأموالنا وأولادنا، وآمالنا وأحلامنا.

خاصة: وأنها ما انتشرت فى الآفاق، وعم نورها، إلا يوم أن آثرها أتباعها على ما عداها.

كما أنها لن تسود إلا إذا كان الإيثار لرفع رايتها رائدنا، بل إلا إذا كان إيماننا بأن الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا، إيمانا كاملا، وواقعا بارزا.

• • •

نتائج الإيثار:

ولصفة الإيثار: آثارها الواضحة، ونتائجها البارزة.

وهذه الآثار والنتائج: تابعة لهذه الصفة، إن كانت خيرا فخير، وإن كانت شرا فشر.

(١) بمعنى: أنه لو كان الإيثار للدنيا على الآخرة، أو للباطل على الحق، بما يترتب على ذلك من: فساد وإفساد.

كانت النتيجة: إيثارا من جنس الإيثار، وإساءة من جنس الإساءة.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧

يقول — ﷺ — :

« تحاجت الجنة والنار .

فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين .

وقالت الجنة : مالى لايدخلنى إلا ضعاف الناس ، وسقطهم ، . . ؟!

قال الله تعالى للجنة : إنما أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى . . الحديث[1] .

(ب) أما لو كان الإيثار للآخرة على الدنيا ، أو للحق على الباطل ، بما يترتب على ذلك من : صلاح وإصلاح .

كانت النتيجة — كذلك — إيثاراً من جنس الإيثار ، وإحسانا من جنس الإحسان ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾[2] .

وقد توصل البحث إلى أن هذا الإحسان الإلهى على هذا الإيثار الحسن يتجلى فى النقاط التالية :

الأولى : أن ينال العبد درجة الإيثار الإلهى ، والعناية الربانية ، وذلك : لإيثاره الحق الإلهى على كل ماعداه ، وجعله شريعة المولى دون ما يشرع البشر : رائداً له ، ومنهجاً لحياته ، ووضع مرضاة الله سبحانه هدفاً له وغاية .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب التفسير — واللفظ له — « سورة ق » (وتقول هل من مزيد) !

ورواه مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » .

(٢) آل عمران : الآية ١٩٨

وإيثار الله لعباده درجات ، على قدر منازلهم عند ربهم ، وإقبالهم عليه ، وطاعتهم له ، وتمسكهم بالحق ، ونشرهم له . ودفاعهم عنه ، ومعاناتهم من أجله .

وهو فضل : يستحق التعرض له ، والحرص على نواله .

وقد أقر إخوة يوسف عليه السلام له بنوال هذه الدرجة ، واعترفوا له بهذه النعمة الإلهية ، إذ : ﴿ .. لما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين * قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قدمن الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾[1] .

والمعنى — كما يقول الإمام القرطبى — لقد فضلك الله علينا ، واختارك بالعلم والحلم والعقل والملك[2] .

وتفضيل الله للعبد : نعمة ، وإيثاره له : فضل ومنّه .

وهذا التفضيل الإلهى والإيثار الربانى : ليس خاصاً بالأنبياء والرسل فقط ، بل إنه — من الضرورى — أن يكون لكل من آثر مرضاة ربه على اتباع هواه ، لأن الإيثار الإلهى : رحمة ، ورحمة الله تعالى : ﴿ وسعت كل شىء ﴾[3] .

---

(١) سورة يوسف ٨٨ — ٩٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٧/٩

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٦

وهذا التفضيل الإلهى : يشمل الدنيا والآخرة . وتغمر العبد آثاره فيهما .

الثانية : أن ينال العبد درجة الفلاح .

يقول تعالى : ﴿ ... ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(١) .

أى : الظافرون بما أرادوا ، فى الدنيا وفى الآخرة .

وليس من المعقول أن يريد مثل هؤلاء : سوى الخير لهم ولغيرهم .

ولذلك : لا يخيب الله رجاءهم وأملهم فى الفوز والنجاة فى الآخرة : ﴿ إنا الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾(٢) .

كما أنه فى الدنيا : يحقق الله تعالى لهم ، ويظفرون بما يريدون ، فينعدم الحقد ، ويسود الرضا ، ويولد الإخاء ، ويتوافر التراحم ، ويكثر الإنتاج ، ويعم الرخاء ، وتملأ الخزائن ، ويفيض الخير ، وتوجد الأسوة الحسنة ، وتنتشر الدعوة ، وتتسع الأرجاء ، ويكثر الأتباع ، وبالتالى : تتلاشى الأزمات ، ويتوارى التخلف ، وترفع رايات التقدم والنهضة .

الثالثة : أن ينال العبد — يوم الجزاء — ما ينتظره عند ربه ، مما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولا نطيل حول بيان هذا الفضل وهذه النتيجة ، بل سنكتفى بما أشار القرآن الكريم إليه .

وذلك فى قوله تعالى بسورة الإنسان :

---

(١) سورة الحشر : الآية ٩

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٠

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عيناً فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾(١) .

وما كل ذلك :

إلا لأنهم : قنعوا فى الدنيا ، وآثروا الآخرة عليها .. !

كما أنهم : أحبوا الحق ، وآثروه على الباطل وعملوا به ، ودافعوا عنه ... !!

ثم آثروا غيرهم — بالرغم من عوزهم الشديد ، وحاجتهم الملحة — على أنفسهم ... !!

---

(١) الإنسان : الآيات ٥ — ٢٢

(١) رواه الترمذى كتاب التفسير باب ٥ ومن سورة المؤمنون ، وقال : حديث صحيح .

فآثرهم الله تعالى . بحبه ورضوانه ، وتحبيبهم فى الخير ، وإعانتهم عليه.

كما جعلهم : من الفالحين فى الدنيا ، المنتصرين على شهواتهم، وعلى الشياطين ، فيها .

ثم ... جعل نصيبهم - يوم الجزاء الأكبر - ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمثله . مما أشارت إليه الآيات الكريمة ، التى تحدثت عنهم، والتى ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم للانسان دعوة له وحثاً على فضيلة الإيثار .

ولكل ذلك :

كان النبى — ﷺ — ، وهو يدعو ربه يطلب منه أن ينعم عليه — وعلى أمته — بهذه المنة الإلهية ، والعطية الربانية

فقد أخرج الإمام الترمذى فى سننه : أن النبى — ﷺ — كان « إذا أنزل عليه الوحى: سمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوماً، فمكثنا ساعة ، فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال :

اللهم :

زدنا ولا تنقصنا .

وأكرمنا ولا تهنا

واعطنا ولا تحرمنا

وآثرنا ولا تؤثر علينا .

وارضنا وأرض عنا .

ثم قال - ﷺ - أنزل على عشر آيات : من أقامهن دخل الجنة .

ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون » حتى ختم عشر آيات »(١) .

وذلك :

لأهمية الإيثار لنا ، وفضله العميم علينا .

وبعد ... !!

فهل : يصبح الإيثار صفة فينا ، شائعاً بيننا ... ؟!!

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عمر رضى الله عنه ، وأخرجه الإمام الترمذى فى سننه — كتاب التفسير — باب ومن سورة المؤمنون » .